الانسجام بين عناصر الحرف العربي

الصوت ، الرسم ، المعنى حروف الإطباق أنموذجا.

د/هناء سعداني

جامعة الوادي

الملخص:

لقد حقق العربي درجة مبدعة من الانسجام بين نطقه لأصواته والتدليل عليها كتابة، مع أن هذه القدرة قد استُخدمت في المراحل الأخيرة من تاريخ الحرف العربي، وذلك حين مكّنه الذوق والحس المرهف – الذي منحته إياه بلاد العرب بعزلتها وطبيعتها الهادئة- من إعطاء أعلى صور الانسجام بين الرسم والصوت.

فحين استلم العربي القلم وتعلم الكتابة، وجد نفسه قادرا على تحسين هذه الرموز التي توازي أصواته نطقا، فقلل من الانكسارات فيها، وأكثر الاستدارة، وقارب بين رموزه وأعضاء جهازه النطقي حين تؤدي هذه الأصوات، ثم وزع على هذه الحروف نقاطا بقدر ما يحمل هذا الصوت من مميزات فيزيائية، أو فيزيولوجية، فخصص لحرف نقطة واحدة أعلاه، وآخر اثنتين، وآخر ثلاثا، ونقط غيره واحدة أسفله وربما اثنتان، ليعبر عن حدث يضاهي نطقا موقع النُقط وكمّها، كل ذلك كان بتنسيق وانسجام بديعين.هذا ما يحاول هذا المقال إيضاحه من خلال حروف الإطباق: ص ض ط ظ.

The summary:

The Arab has achieved a perfect degree of harmony between pronouncing his sounds and indicating on them in a written form, although this ability has been used in the late periods of the Arabic letter's history, and that is when the taste and the sens of slender - that the Arabic land has granted it to him by its isolation and its calm nature- have enabled him to give the highest images of harmony between the drawing and the sound.

When the Arab has received the pen and has learnt writing, he found himself able to improve these symbols which equal his sounds in pronunciation, so he has reduced the angles in them, has increased the rotations and he has brought together his symbols and the components of of his vocal tracts when the latter is performing thes sounds, then he has distributed dots on these letters as much as this sound carries from physiological and physical features, so he has put a dot on the top of a letter, two and sometimes three on others, he has also dotted other letters with one dot in the bottom and maybe twoin order to express an event which equals in pronunciation the position of the dots and their quality. All this was with a splendid coordination and harmony. So it is not surprising to find that most of the Arabic letters show clearly the shape of the occurance of their sound from a certain side. That's what this article tries to explain through letters:ص،ض، ط، ظ

توطئة:

إنّ"صور حروف الكتابات كثيرة الفنون مختلفة الأنواع، وهي بحسب موضوعات الحكماء من الكتّاب، واختياراتهم"[1]، و"إنّ المرء ليستطيع أن يدّعي أن الأبجدية العربية ربما كانت من أوفى النظم الكتابية في العالم، بالغرض الذي وُضعت له، ذلك لأنها تضع لكل حرف من حروفها رمزا كتابيا خاصا، وهو أمر لا يستطيع كثير من لغات العالم أن يفاخر به"[2]، وهذا قد تحقق بعد نقط الإعجام حين تميزت أيضا الحروف المتشابهة رسما عن بعضها من خلاله..

فالخط العربي يعتبر مظهر العبقرية الفنية عند العرب والمسلمين، ولقد كان أولا وسيلة للمعرفة، ابتدأ منذ أن كان جنينا في رحم الكتابة الفينيقية، ثم توضّح في الكتابة الآرامية، ثم في الكتابة النبطية المتأخرة، حتى بلغ كماله وجماله في الكتابة العربية "[3]، وذلك بعد أن أدخل العرب على حروفه تغييرات عديدة وطوروها وفقا لحاجاتهم وميولهم الفنية[4].

وطبيعة اللغة، بشكل عام، تتخذ في المقام الأول صورة صوتية منطوقة ومسموعة، ثم يأتي فيما بعد الرسم أو الكتابة، وما الرسم إلا محاولة لترجمة الظاهرة الصوتية السمعية إلى ظاهرة كتابية مرئية، أي محاولة لنقل اللغة من بعدها الزمني إلى بعدها المكاني، لأن الظواهر الصوتية تتتابع في الزمن والحروف المكتوبة تتتابع في المكان.[5]

و"تكمن قيمة أي رمز في الاتفاق عليه بين الأطراف التي تتعامل به"[6]، حتى تصبح العلاقة بين الرمز والصوت علاقة عضوية، والخط العربي، لم يتخل حتى الآن عن وظيفته المزدوجة وطبيعته المتآصرة بين الشكل والمضمون [7].

ومن ثم أصبح باستطاعتنا أن نرى ونسمع " موسيقى اللغة العربية وجرسها تتجلى في صيغ الخط"[8]. بل أصبحت للخط فلسفة روحانية، فهو عند البعض يعلو عن الألفاظ، كما أنّ الخط عند رجل الفن المسلم عبادة، لإيمانه بأن صَنعته ليست مجرد تحكم الأصابع في القلم، فهناك وراء ذلك، الفكر الذي يسيطر على الجوارح .[9]

واللغة بما فيها من أصوات هي الإنسان، فبعض "أصوات الحروف العربية يماثل عظام الإنسان في قساوتها، وبعضها يماثل عضلاته في قوتها ومرونتها، وبعضها الأخر يماثل لحمه في ليونته وطراوته، وغيرها يماثل أعصابه في حساسيتها ورهافتها."[10]

حتى أصبحت الكلمة العربية في نظر البعض"صورة تكشف عن المفاهيم الكامنة فيها، وأصبحت الصورة مصعدا يرقى بالحدس إلى هذه المفاهيم مباشرة، للرابطة القوية بين صورة الكلمة وبوادر الشعور بالطبيعة"[11].

والحرف مزيج بين الصوت والمعنى إذ يقول ابن جني :"إن كثيرا من هذه اللغة وجدته مضاهيا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنها"[12]

ودليل أثر مخرج الصوت – خاصة – على الرسم، يمكن أن نستشفّه من تشابه الحروف المتقاربة مخرجا ورسما. وهذا فكر إنساني بشكل عام وليس عربيا فقط، فالأبجدية الآرامية أيضا كل حرفين فيها من مخرج واحد يتشابه رسمها مثلها مثل العربية [13] . فالتقارب بين حروفنا في الشكل يشبه التقارب بينها في اللفظ [14] .

ويرمي هذا الكلام إلى وجود قيمة صوتية يحملها الرسم، فقد كان " في السريانية نقاط توضع فوق الحرف إذا كان حرفا قاسيا، أو تحت الحرف إذا كان حرفا لينا، فمن المحتمل أن يكون نصر بن عاصم أو يحيى بن يعمر قد قلّدا هذه النقاط السريانية، وأدخلا على الحروف نقاط تميُّزها "[15] على هذا النحو.

وقد تعرضت الكتابة الأبجدية عموما لتحسينات بحسب طبيعة اللغات المنطوقة [16]، ولسنا نقصد هنا عملية نقط الإعجام لأن السريان قد استعملوا قبل العرب"الإعجام بالإضافة إلى الشكل في كتابتهم، كما نقط العبرانيون كذلك بعضا من حروفهم كالذال، والخاء، والظاء"[17]، بل نقصد اختيارهم رمزا محددا، للتعبير به عن مظهر صوتي خاص به دون غيره، أي أن باستطاعة رسم الحرف أن يعكس حال الصوت عند حدوثه، وهذا لا نعني به بلوغ الأمر حدّ الكمال، بل هي محاولات لبلوغه .إذ"يعتقد كثيرون أن الكتابة بصفة عامة صورة صادقة للغة المنطوقة."[18].

لذلك تحمل الكتابة العربية، رغم تجردها سحرا وأسرارا، لأن ارتباط الصورة بالكلمة وثيق في عين الرائي وفي فكره [19]، إذ يرى أبو سليمان السجستاني أننا نُصغي من خلال التكوين الخطي إلى النغم مع انسياب الحرف، ونحدس بالترجيع الصوتي في ترتيب وتنسيق الحروف المتشابهة،وبالتوافق الهرموني في إحكام العلاقة بين الحروف والنقاط والعلامات [20].

ولا عجب أن يفعل الرجل العربي هذا، فقد عاش في عزلة مع الطبيعة، ذاق أصواته وتحسسها، "فاكتسب مزية السمع المرهف وما يصحبه من مزية التفريق بين الأصوات، بل بين الهمسات والأصداء " [21]، وبعد أن نمت قدراته الحسية الصوتية، تفرّغ لتحسين رسم حروف لغته التي جاءته بصورة تتفق مع أهلها الأنباط، فصقلها بما يتسق مع روحه وطبيعته وحكمته، فيكشف من خلال ذلك عن مفاهيمه الصوتية والمعنوية، الخاصة به.

يمكننا أن نلاحظ من خلال الجدول الآتي كيف تطور الحرف العربي من شكله النبطي إلى النسخ الحديث.

تطور حروف الخط العربي من النبطي إلى النسخ الحديث[22]

عندما نمعن النظر في حال الحرف العربي قبل النقط وبعده وندقق في سبب الثبات عند رسم بعينه و نقطه بشكل محدد دون غيره، ندرك أن لكل رسم أختير ونقطة وجدت حول الحرف تفسير صوتي خالص بالدرجة الأولى، يحقق التوافق بين النطق والرسم للحرف.

هنا نطرح مصطلح الانسجام * في العلاقة بين الرسم والصوت ويتبعهما لاحقا الانسجام في المعنى أيضا، فقد يكون الانسجام من درجة عالية، وقد يكون أقل من ذلك، بقدر اجتهاد الرجل العربي، للكشف عن أصواته، بصور كتابية شفافة، تعكس ما يريد من أصوات و معاني .

وفي الواقع اللغوي إن أقل ما يدل عليه الرسم المنفصل للحرف، أنه اختلاف في المخرج أوفي الشدة والرخاوة والتركيب والتوسط أوالجهر والهمس، ولكن الباحث قد يريد أن يبين أمورا إضافية في النطق، كالتحليق والإطباق والتغوير... والشدة الأنفية، فيضيف إلى الرمز ما يوضح هذه الملامح الإضافية، ومن هنا تكثر رموز الأصوات بحسب هذه الإضافة[23].

وقد اخترنا لمقالنا هذا أصوات الإطباق نموذجا، والإطباق هوأن ترفع لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقا له، وحروفه: **ص ض ط ظ**، وما سوى هذه الأصوات مفتوح غير مطبق، أي لا ترفع فيه لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقا[24] .وإذا وضع الناطق طرف لسانه في أي من مخارج حروف طرف اللسان أمكنه أن يجعل أقصى اللسان يتصعد شيئا قليلا حتى يصير مقوسا كالطبق،فينتج عن ذلك صفة الإطباق[25].

وسنتابع الآن العلاقة بين صوت و رسم و معنى هذه الحروف.

حرف الصاد (ص):

الصاد صوت أسلي عند الخليل، لأن مبدأها من أسلة اللسان وهي مستدق طرفه[26]، وهي تحدث بالضبط، " مما بين طرف اللسان وفويق الثنايا "[27].

ويصف ابن سينا هيئة حدوثه فهو " كالسين إلا أن مسرب الهواء فيه يأخذ من اللسان جزءا أعظم طولا وعرضا، ويحدث في اللسان كالتقعير حتى لا يكون لانفلات الهواء كالدوي، وليس في السين ولا في الصاد ... تهزيز رطوبات ولا تهزيز سطح جلد"[28].

وله رواية أخرى : " وأما الصاد فيفعله حبس غير تام أضيق من حبس السين وأيبس، وأكثر أجزاءً حابسٌ طولا إلى داخل مخرج السين وإلى خارجه، حتى يُطبق اللسانُ أويكاد يُطبق على ثلثي السطح المفروش، تحت الحنك والشجر، ويتسرب الهواء عن ذلك المضيق بعد حصر شيء كثير منه من وراء، ويخرج من خلل الأسنان "[29].

كذلك يصف المحدثون حدوث الصاد على أساس المقارنة مع السين، و يضيفون : "مع فارق أن اللسان مع الصاد يرجع إلى خلف قليلا، مما يؤدي إلى الإطباق، ويرتفع مؤخره تجاه الحنك اللين "[30]، وهناك من يتصور الصاد بالتقاء طرف اللسان بالأسنان العليا أوالسفلى أو اقترابها حيث لا يتوفر إلا منفذ ضيق جدا لمرور الهواء[31] .

نلاحظ من خلال الرسم التالي تجسيد رسم الحرف لهيئة نطق الصوت،فما تجده في الصاد رسما صـ من تجسيد لشكل اللسان حال الإطباق تجده ثابتا في أخواتها المطبقات: ضـ طـ ظـ .

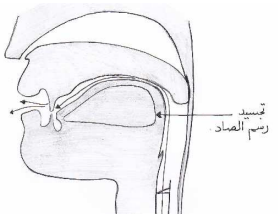

هيئة إنتاج الصاد

وأما رسم صوت الصاد قديما، فقد كانت الرموز التي عبرت عنه في الكتابات النبطية قليلة في مواقعها المختلفة (ص ، ص ، ص)، وعنها تطورت (صاد) الحروف العربية[32].

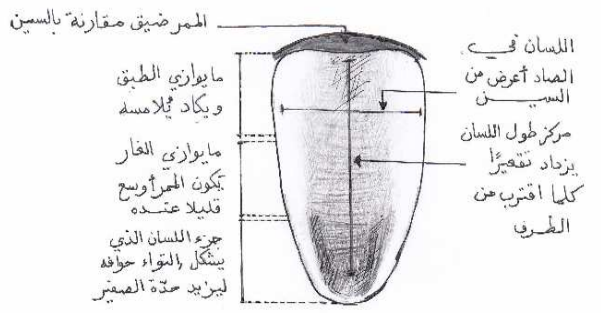

هيئة اللسان مع الصاد.

نلاحظ عند تتبع ما سبق ما يلي :

- **الصاد يحدث بارتفاع مؤخر اللسان وطرفه بالإضافة إلى تقعير وسطه، وينتج عنه ممر كالذي في السين .**

- **ممر الهواء أضيق في الصاد لأن الالتقاء بين اللسان وسقف الحنك الأعلى أطول وأعرض .**

- **كما أن بعض الهواء يتعطل قبل مكان الإطباق .**

- **ليخرج الهواء من خلال الأسنان دون هز رطوبات أوسطح الجلد .**

- **يظهر رسم (ص) في العربية مجسدا لكيفية نطقه، وهو صوت غير مشال لأن طرف اللسان فيه لا يرتفع كارتفاعه في الطاء و الظاء، وغير منقوط لأنه لا يحدث فيه انفجار أواهتزاز رطوبات.**

<u>معاني الصاد عند اللغويين</u> : جاء في معنى اسم هذا الحرف(الصاد) أنّه "الدّيك المتمرغ في التراب"[33] وأيضا "قدر النحاس"[34] و"الصّفر"[35].

أمّا عن صوته فقد وجده ابن جني يحمل معنى القوّة إذا ما قورن بالسين، فهو عنده في الشاهد (صعد، سعد)، (الوسيلة، الوصيلة)، (سدّ، صدّ) ينقل دوماً قوة في المعنى[36]، وقال العلايلي هو "يدلّ على المعالجة الشديدة"[37]، أي الأفعال القويّة.

وحين بحث حسن عبّاس في معنى الصّاد وجد أنّه بالنسبة لباقي الحروف "كالرصاص من المعادن رجاحة وزن، وكالرخام الصقيل من الصخور الصّمّاء صلابة ونعومة ملمس، وكالإعصار من الرياح، صرير صوت يقدح ناراً"[38]، و نحن نلمح في هذه

المعاني قوة نطق الصاد و أيضا نعومة شكله ملمسا مقارنة بأخواته المطبقة المشالة أو المنقوطة.

وعندما جال حسن عباس بالمعجم وتابع صوت الصّاد في الكلمات وجده يحمل "شخصيّة فذّة طغى بها على معاني معظم الحروف في الألفاظ التي تصدرها، ليعطيها من نقاء صوته صفاء صورة وذكاء معنى، ومن صلابته شدّة وقوة وفعاليّة، ومن طبيعته الصّفيريّة مادة صوتية نقيّة ما كان أصلحها لمحاكاة الكثير من أصوات الناس والحيونات وأحداث الطبيعة"[39]، نحو: صأى الفرخ (صاح). صحِل صوته (بُحَّ وخشُن). الصخب. صخَّ الحجرُ (صوّت عند القرع). صدح الطائر (رفع صوته فأطرب).الصدى. صرخ. صرّ صريراً (صوّت). صرصر (صاح بصوت شديد متقطع). صرف الباب صريفاً (صوّت). .... صمل صملا وصُمولا (اكتنز وصلب). الصِّنديد (الشريف الشجاع). الصولة. أصمى الصيد (أصابه فوقع بين يديه). الصيصة (الحِصن). صال عليه (سطا عليه ليقهره). صاد الوحش (قنصه).[40]

وخلص حسن عباس بعد دراسته لهذا الحرف بالتحديد إلى أنّه أنبل الحروف العربية، فرغم ما يحمله من صفير يدعوه ليكون من الحروف المحاكية للصوت، إلا أنّه كان عنده أكثر الأصوات تمثيلاً للمشاعر الإنسانية المرهفة لما فيه من مزايا وهي: "جمال صوته وعذوبته وموسيقاه، ولما يثيره في النَّفس من إيحاءات النقاء والصفاء والطهارة والبراءة والعزة وقوة الشّكيمة"[41]،نحو: الصبابة (الشوق)، صبا إليه (حنَّ وتشوق). الإصبع. الصاحب. الصِّراط. الصَّدغ. الصغير. أصغى إليه (أحسن الاستماع). الصمخة من النساء (الغضّة). الصِّنْو (النظير). لون أصهب (أصفر ضارب إلى الحُمرة). أصاخ إليه (استمع). الصّناعة. الصياغة. صاك الطيبُ (عبِق). صيّأ. النخيلُ (ظهرت ألوان البسْر). تصنَّف الشجر (بدأ ورقه وتنوع). صفّ القوم (انتظموا في صف واحد). الصيف.[42]

كما اعتمد أحمد زرقة على جانب الصاد الصوتي حين عرفه، فقد وصفه بالصاد الصفيري، وكان تعريفه له بالاعتماد على الألفاظ الدالة على الصوت تحديداً[43].

حرف الضاد (ض): الضاد صوت تغيرت ملامحه كثيرا من القديم إلى يومنا هذا، بل الأمر أشد تعقيدا من مسألة تطور زمني، حتى في العصر نفسه تجد له أوصافا كثيرة متضاربة [44].يقول برجستراسر : " فالضاد العتيقة حرف غريب جدا غير موجود على حسب ما أعرف في لغة من اللغات غير العربية، ويغلب على ظني أن النطق العتيق للضاد لا يوجد الآن عند أحد من العرب "[45]

ويشير كمال بشر إلى أن من العرب قديما وحديثا من يعتقد أن العربية اختصت بالظاء لا الضاد [46]، وأورد شواهد على هذا أهمها : " روى الليث أن الخليل قال : الظاء حرف عربي خُصَّ به لسان العرب لا يَشْرَكُهم فيه أحد من سائر الأمم " [47].

والذي يهمنا هو هيئة حدوث الضاد كما حددها القدامى لأننا نحاول وصف الرابط بين رسم الصوت وهيئة حدوثه، وهي علاقة قديمة تتصل بأصل الضاد عند العرب قديما، لا بما طرأ عليها من تغيير نطقي حديثا.

فالخليل جعلها شجرية، " لأن مبدأها من شجر الفم "[48]، وهي كما ضبطها سيبويه "من بين أول حافة اللسان وما بينها وبين ما يليها من الأضراس"[49]، كما فتح القدامى المجال للناطق باختيار جهة إخراجها لأنك: "إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن، وإن شئت من الجانب الأيسر " [50].

ليأتي ابن سينا ويراها " تحدث عن حبس تام عندما يتقوّم موضع الجيم، وتقع في الجزء الأملس، إذا أطلق أقيم في مسلك الهواء رطوبة واحدة أورطوبات تتفقع من الهواء الفاعل للصوت، وتمتد عليها، فتحبسه حبسا ثانيا، ثم تنشق وتتفقأ، فيحدث شكل الضاد[51].

ويقول : " وأما الضاد فإن مخرجها أقدم قليلا من ذلك (يقصد مخرج الجيم)، والحبس فيه تام كالجيم، لكن تخالفها بشيئين : أحدهما : أنها لا يُتكلف فيها توجيه الهواء إلى مضايق خلل الأسنان، فيحدث صفيرا، والثاني: أن الرُّطوبة التي تَحبس فيها الهواء بعد الإطلاق تكون أعظم، ويدفعها الهواء منحصرا فيها حتى يحدث منها فقاعة أكبر ثم تتفقأ لا في مضيق، ولا يكون في لزوجة رطوبة الغين " [52] .

يتضح من رأي القدماء أن موضع النطق لهذا الصوت عندهم من وسط الحنك أومن نقطة قريبة منه، أي منطقة الجيم والشين والياء [53]. وهو عندهم صوت فيه انحراف يشبه انحراف اللام، بل تعرف صفة الاستطالة الخاصة به، بقرب حدود مخرج الضاد من حدود مخرج اللام [54].

إذ يقول حفني ناصف: " فالضاد واللام يتوزعان حافة اللسان ويقابل حافة اللسان في الضاد الأضراس نفسها، ويقابلها في اللام ما فويق الأسنان لا الأسنان نفسها " [55] . كما أن هذا الصوت وُصف بالتفشي لما فيه من احتكاك للهواء بممره الجانبي عند انفجار الصوت، فقد قال ابن جني : " وأما الضاد فلأن فيها طولا وتفشيا، فلو أدغمت في الطاء لذهب ما فيها من التفشي، فلم يجز ذلك، كما لم يجز إدغام حروف الصفير في الطاء ولا في أختيها، ولا في الظاء ولا في أختيها، لئلا يسلبهن الإدغام ما فيهن من الصفير " [56] .

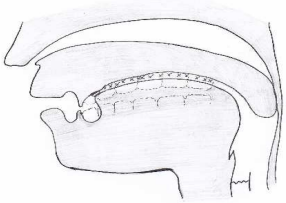

هيئة إنتاج الضاد.

عند تتبع كل ما سبق والتدقيق فيه نجد :

- **الضاد صوت نقطة حدوثه عند الجيم والشين، ولكن فيه إطباق ليس في هذين الصوتين، أي تحدث فيه غرفة رنين غير التي في (ش) و(ج) .**

- **الضاد صوت انفجاري، تتجمع عند حبسه الرطوبة وتحدث انفجارا جانبيا قويا، كانفجار فقاعة كبيرة داخل الفم.**

- **الضاد أيضا من الحروف الروادف، ورسمه أخذ عن الصاد ونُقط لاحقا، غير أنه ظهر في العربية الجنوبية بين (200 ق م، و700م) بهذه الصورة: (𐩦) وهو الشكل عينه للطاء حينها: (𐩧) لكنه عمودي وليس أفقيا، أما في الكتابات السابقة واللاحقة لهذه الفترة فلم يكن له أي رسم [57].**

- **نتساءل:لِمَ أخذ العرب رسم الضاد عن الصاد ولم يعتمد على رسم الطاء ونقصد هنا فارق الإشالة بينهما ؟**

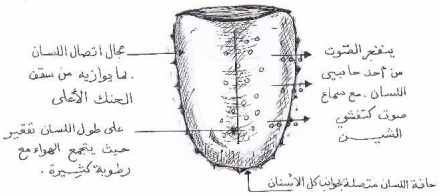

اللسان حال إنتاج الضاد.

لقد كان طرف اللسان في الصاد والضاد غير مضغوط عليه ليكون مخرجا، أي لم ينفجر الصوت عنده، فالصاد احتكاكي مطبق، والضاد جانبي عند انفجار صوته،لهذا لم تضف إشالة له. وقد نقط الضاد لغلبة الرطوبة فيه، التي وصفها ابن سينا بأنها تتدافع عند انطلاق الصوت حتى يبدو وكأنه ينفجر مرات متعددة، لحجزها طريق الهواء كل حين، وهذه النقطة ميزته عن الصاد فهو غير احتكاكي بل رطب منفجر.

<u>معاني الضاد عند اللغويين</u> : الضاد كان ومازال أوفر الحروف العربية حظا بالدراسة، وتحديد مخرجه اختلف فيه بين القدامى والمحدثين[58]، كما حدث مع حروف أخرى، لكن سبب ذلك مع الضاد أعقد، كونه يواجه مشكل اختلاف في نطقه بين العرب، قال بن الجزري : "الضاد انفرد بالاستطالة، وليس في الحروف ما يعسر على اللسان مثله، فإن ألسنة الناس فيه مختلفة، وقلّ من يحسنه، فمنهم من يخرجه ظاء، ومنهم من

يمزجه بالذال، ومنهم من يجعله لاماً مفخمة، ومنهم من يشتبه بالزاي وكل ذلك لا يجوز"[59].

أمّا اسم هذا الحرف فقد قال في معناه الخليل :" الضاد: الهدهد إذا رفع رأسه وصاح"[60]، وجاء أيضا : "الضاد: صوت المنخل"[61].

والعلايلي قال في معنى صوت الضاد:"الغلبة تحت الثقل"[62]،ونجد ذلك بالفعل في نطقه أيضا ورسمه،ففيه قوة و ضغط معا.

وحين أراد حسن عباس البحث في معانيه واجه مشكل كيفيات نطق هذا الصّوت المختلفة، فقد كان بحثه في المصادر العربية عن دلالة هذا الصوت بحاجة إلى أن يستقر بنهاية الأمر على نسق واحد لنطقها، يقول عباس: "إذا لفظت الضاد مفخمة شديدة الانفجار كما في سورية كانت تفخيما للدال، لتصبح بذلك أعلى منه نبرة وأملأ صوتا وأكثر تلونا بإيحاءاته الصّوتية، وصوت الضاد في حالة التفخيم والتشديد يوحي بالصّلابة والشّدة والدفء كأحاسيس، لمسية، وبالفخامة والضخامة والامتلاء كأحاسيس بصرية، وبالضجيج كإحساس سمعي، وبالشهامة والرجولة والنخوة كمشاعر إنسانية"[63].

ويواصل حسن عباس وصفه:"وإذا لُفظت بما يشبه الدال المرققة كما في مصر كانت ضاداً مخففة بنطقها وخصائصها الصوتية، وبذلك تكون أقل إيحاء بالشدة والقساوة من الدال ذاتها، ولا ما يوحي بالفخامة والضخامة والضجيج، ولا بأية مشاعر إنسانية"[64].

وبعد دراسة حسن عباس للمصادر التي بها حرف الضاد توصل إلى أنّ "جميع المصادر التي شاركت الضاد في تراكيبها في مختلف المواقع منها، يتضح أن معظم معانيها يتوافق مع الخصائص الصوتية للضاد المفخمة لا المرققة، فمعظم المصادر التي تدل معانيها على الشدة والضخامة والامتلاء والصلابة والنضارة والمشاعر الإنسانية، لا تقبل الضاد المصرية قطعاً، وذلك للتعارض الكائن بين موحيات صوتها وبين تلك المعاني"[65]، وقد وجد عباس بالأخير أنّ الضاد السورية هي الأصل وهي الأنسب نطقا للمعاني التي تحملها المصادر التي بها ضاد، كما في: الضحى، ضوع العطر، الضوء، المحض، النبض، ومض البرق، الخضرة، الخضيلة (الروضة النديّة)، الرُّضاب، النضارة، الوضوح...."[66].

وقد حدد أحمد زرقة للضاد صفة "الضجيجيّة"، وهي عنده النظير المفخم للدّال[67]، كما أشار إلى اختلاف المعنى بين تواجد الضاد أول الكلمة أوآخرها، فـ "المرض" خمود وضعف، و"ضرم" قوة واشتغال، ومن يعارضك (عارض) في موقف، ضدّ من يضارعك (ضارع) أي يشابهك[68]، هكذا إذن كانت معاني الضاد عند اللغويين.

حرف الطاء (ط)؛الطاء عند الخليل نطعية "لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى"[69]، وهي "مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا"[70].

ونجد ابن سينا قد فصّل هيئة حدوثها بقوله : " وأما الطاء والتاء والدال فإن مخرجها من المقدم من السطح الممتد على الحنك، وتحدث كلها من حبسات تامة، وقلع، ثم إخراج هواء دفعة " [71] . ثم يضيف مدققا في ذلك " لكن الطاء تحبس بجزء من طرف اللسان أعظم، ووراءه بضلعي اللسان وتقعر وسط اللسان خلف ذلك المحبس، ليحدث هناك للهواء دوي عند الانفراج ثم يقلع، ويكون الحبس بشد قوي"[72] .

وجدت الطاء عند المحدثين إشكالا في نسبتها لحدث الجهر أوحدث الهمس، لأن القدامى قالوا بجهرها ورأى المحدثون غير هذا، لكن نقطة حدوثها اتفق فيها الجميع[73]، فلإنتاجها"ترتفع مؤخرة اللسان باتجاه الحنك الأقصى (الطبق) ويتأخر بعض الشيء نحو الجدار الخلفي للحلق ويتقعر وسطه " [74]، أي يرتفع طرفه وأقصاه ويتقعر وسطه، ومخرجها حديثا يسمى لثويا أسنانيا، إذ يلتصق اللسان بالأسنان العليا من داخلها، عند النطق بها[75].

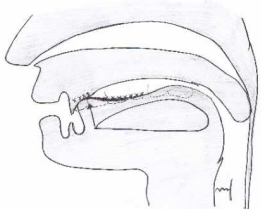

هيئة إنتاج الطاء.

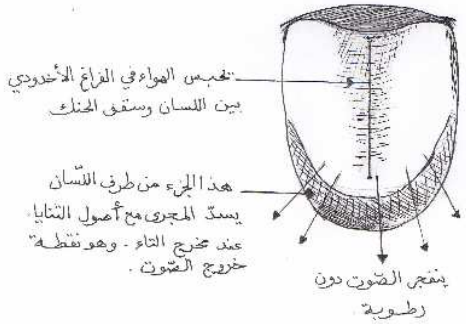

حال اللسان عند حدوث الطاء.

أما عن رسم صوت الطاء، فيمكن القول : " أن الكتابات النبطية الحورانية ونقوش البتراء والحجر، والسينائية الحديثة، قد عمدت إلى صورة واحدة، واستعملتها، للتعبير

عن صوت الطاء، (ط ، ط) "[76]. ويؤكد عبابنة أن " الشبه واضح جدا بين هذه الرسوم والرمز العربي (ط) المستعمل للتعبير عن هذه الصورة الصوتية "[77].

رأينا في الشكل أعلاه كيف أن حدوث الطاء فيه ارتفاع لمؤخر اللسان وتقعير لوسطه، ورفع لطرفه، إذ ندرك اتفاق هذا مع رسم الصوت ط.أي أن هيئة الحدث الصوتي يجسدها الرسم الذي ارتضاه لها العربي، حيث:يتكون ط من:(صـ) = شكل اللسان عند الإطباق، (ا) = ارتفاع طرفه ليُكوِّن مخرجا بسد مجرى الهواء.

معاني الطاء عند اللغويين : اسم (الطاء) معناه "الشيخ كثير النكاح"[78]، وقيل أيضا "المكان السَّهل"[79]، أمّا صوته فقد تلمس ابن جني فيه معنى السرعة ومحاكاة الصوت، حين شرح دلالته في (القطّ)، و(القَرْط)[80]. وقال العلايلي إنّه "يدلّ على المَلَكة في الصّفة وعلى الالتواء والانكسار"[81].

وعند متابعتنا تناول حسن عباس لهذا الحرف بالدراسة، لاحظنا أنّه لم يكن له اتجاه هذا الصوت الإحساس نفسه الذي كان لباقي الحروف، حتّى أنّه لم يصف لنا معناه كما فعل معها. وهو يقول أنّه صُدم في دلالة هذا الصوت إذْ كان ينتظر منه الضعف لا قوّة الشخصية، فيقول عباس عن الطاء : "له إيحاء لمسي بين المرونة والطراوة، وله من المذاقات طعم الدّسم، ومن الشمّيات رائحة العطور، وله إيحاء بصري من الضخامة بين التّكور والفلطحة"[82] نحو: طفر (قفَزَ من فوقه). طفّ (ارتفع). طلع (ظهر من علو). طمح (ارتفع). طمّ (كثر حتى عظم). طما (ارتفع) . طنشر (ثقل جسمه من اكل الدسم). طنخ (اشتد سمنة) . المطهَّم (السمين الفاحش السمن). الطَّود(الجبل) . طال. الطوق (كل ما أحاط بشيء خلقة أو صنعة).[83] كل هذه المعاني برأينا يعكسها أيضا رسم الطاء. فما كان فيه من إشالة للبروز كيفما كان. عبر عن بروز اللسان نطقا أولا. و حمل الصوت هذه المعاني بدوره.

وقد فسّر عباس هذه الإيحاءات فقال: "قد استمد هذا الحرف إيحاءاته الذوقية من تمّاس اللسان المباشر لكامل مساحته العليا مع سقف الحنك عند التلفظ به، على مثال ما يضغط اللسان على مضغة من اللحم الطريّ النضيج"[84].ويضيف "كما استمد إيحاءاته الشميّة من تجاوب صدى صوته من التجويف الأنفي (الخيشوم). إذ لا بدّ أن يؤثر صدى اهتزازاته الطريّة اللينة المباشرة في خلايا حاسة الشمّ عند النطق به يدغدغها بنعومة ورقّة كما تدغدغها موجات من نسيمات رائحة ذكيّة ..."[85].

ويستشهد بجملة من الكلمات ليوضح الفرق بين وجود الطاء وغيابه وما يحمله وجوده من تلك المعاني؛ "فألفاظ (طبخنا وطعام، وطيب وعطر)، تشغل اللسان كله، وتتجاوب أصداء أصواتها في تجويف الأنف فتثير حاستيّ الذوق والشم أكثر ما تفعله ألفاظ (هيّأنا، زاد، ذكيّ، سائغ.) التي تشغل الذّهن أكثر مما تشغله الألفاظ السابقة"[86].

وقد سمّى أحمد زرقة الطاء بـ"الطنينيّة" ووجد فيها طراوة في الإنتاج، فقد حملت معنى الصوت عنده بشكل أساسي[87].ففيها من قوة الانفجار صوتا ما يسمح بهذه التسمية.

حرف الظاء (ظ):الظاء صوت لثوي المخرج عند الخليل، لأن مبدأها من اللثة [88]، وهي تحدث "مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا"[89]، وقد وصف ابن سينا هيئة حدوثها كالآتي:"وليست تخرج عن حبس تام بل حبس مثل الإشمام بجزء صغير من وسط طرف اللسان يتوخى به أن يكون ما يلي أصل اللسان متعرضا للهواء برطوبته، ثم يمر الهواء بعد الحبس الخفيف فيه مرا سلسا خفي الصفير جدا، ولكن فيه صوت رطوبة "[90].
وهذا الصوت عنده يأتي قبل الذال والثاء[91].

ويصف المحدثون هذا الصوت عند النطق به كما يلي : " يقترب طرف اللسان من القواطع العليا ويلامسها بحيث يسمح بمرور الهواء المزفور من خلال منفذ ضيق، وقد يتجاوز طرفُ اللسان القواطعَ قليلا بحيث يُرى من الخارج، أو يوضع وراءها تماما " [92].
و"كتلة اللسان ترجع إلى الخلف قليلا، ويرتفع مؤخره تجاه الحنك اللين [93].

وقد قال بعضهم : " في بناء هذا الصوت يوضع طرف اللسان بين أطراف الثنايا العليا والسفلى " [94].

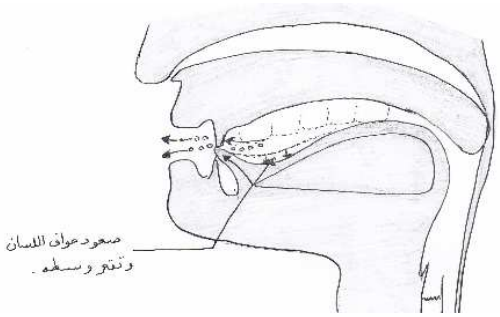

هيئة إنتاج الظاء

ظ تتألف من:(صـ)= الإطباق/(ا) = مشاركة طرف اللسان في سد المجرى ويكون نقطة الإخراج للصوت/(.) النقطة أتت للاهتزاز والرطوبة فيه دون نظيره رسما (ط).
ورسم صوت الظاء، لم يكن موجودا في الخط الفينيقي الذي هو أساس الخط العربي، فهو من الحروف الروادف، أخذت صورة الطاء له، وتميز عنها لاحقا بنقطة أعلاه [95].

من ثم نلحظ:

- أن اختيار رسم (الطاء) لصوت (الظاء) كان لشعور اللغويين بقرابة الصوتين حدوثا، فلم تُختر هنا (ص) برسمها لصوت الظاء، ذلك لإحساسهم عند نطق الصوت بارتفاع طرف اللسان وقيامه بعمل يشبه عمله عند الطاء وهو مختلف في هذا عن (الصاد).

- أضيفت لاحقا نقطة للظاء دون الطاء لأن في الظاء دواعي النقط نفسها التي نقطت لأجلها باقي الحروف وهي : الاهتزاز أو الرطوبة .

معاني الظاء عند اللغويين : أمّا عن معنى اسم هذا الحرف فهو: "ثدي المرأة إذا تثنت"[96] وقيل هو" الكبير المسن"[97].ولصوت الظاء معنى "التّمكن في الغؤور"[98] كما يقول العلايلي.

وبحث حسن عبّاس فيه فوجده "يوحي بالفخامة والنضارة والأناقة والظهور، وبشيء من الشدّة والقساوة"[99].و قد رأينا الأناقة و الفخامة في الضاد لكنها لم تحمل معنى الظهور. وقد أكد نطق الصوت و رسمه إضافة معنى الظهور من خلال بروز اللسان ورسم الإشالة معا.

ويقول حسن عباس في هذا أننا إذا تتبعنا الألفاظ التي شارك فيها الظاء سواء في أولها أووسطها أوآخرها على قلتها - فهي لم تجاوز 68 مصدراً - لوجدنا المعنى الغالب عليها والذي فرضه الظاء كان معنى الظهور والبروز، وكأنّ نطقه وخروجه من بين الأسنان داعياً اللسان كي يطل على الخارج جزءً من معناه، وفيه أيضا معاني الفخامة والعذوبة، وقد تأسّف عباس، كون العربي لم يوسع من دائرة استخدام هذا الصوت[100] . و من أمثلته: الظُّبة (حدُّ السيف). الظّرُّ (الحجر الصوان له حد). الظّرب (ما نتأ من الحجارة وحدّد طرفه). الظّفر للإنسان، والجوارح والكواسر). الظّلف (الظفر المشقوق للماشية).الظنب (أصل الشجرة). الظُّنبوب (حرف ساق القدم).... تعظلم الليل (اشتد سواده). عظل بالكلام (عقّده وصعّبه). عظاه (اغتاله، سقاه ما يقتله). فظع بالأمر (استعظمه وهاله). كظر القوس (حزّ طرفيها). لظيت النار (تلهبت)،مظع الوتر (ملّسه ويبّسه) ،وظف القوم (تبعهم)،بظِرت شفته العليا (نتأ وسطها مع استطالة). بظرم (حمق) [101].

ويبدو لنا أن خلط العرب إلى يومنا هذا بين نطق الضاد والظاء، يؤكد سعة استخدام هذا الصوت، فما سجل في المعاجم منسوبا للضاد ، كثيراً ما ينطق ظاء، ولم يبرح المعنى _رغم ذلك _ مكانه بتلك الألفاظ. لذلك فإنّ أسف عباس لا يتعدى المكتوب، أمّا المنطوق فقد أعطى الظاء حقه، سواء كان ذلك بمعايير لغوية فصحى أولهجية.

وأخيرا نجد أحمد زرقة يسمي الظاء بالظليلة لكنه لا يعطي معنى محددًا لها.[102]

الخلاصة:

تؤكد هذه الدراسة أن العربي حقق درجة مبدعة من الانسجام بين نطقه لأصواته والتدليل عليها كتابة، مع أن هذه القدرة قد استُخدمت في المراحل الأخيرة من تاريخ الحرف العربي، وذلك حين مكّن الذوق والحس المرهف - الذي أكسبته بلاد العرب صاحبها - من إعطاء أعلى صور الانسجام بين الرسم والصوت.

فحين استلم العربي القلم وتعلم الكتابة، وجد نفسه قادرا على تحسين هذه الرموز التي توازي أصواته نطقا، فقلل من الانكسارات فيها، وأكثر الاستدارة، وقارب بين رموزه وأعضاء جهازه النطقي حين تؤدي هذه الأصوات، ثم وزع على هذه الحروف نقاطا بقدر ما يحمل هذا الصوت من مميزات فيزيائية، أو فيزيولوجية، فخصص لحرف نقطة واحدة أعلاه، وآخر اثنتان، وآخر ثلاث، ونقط غيره واحدة أسفله وربما اثنتان، ليعبر عن حدث يضاهي نطقا موقع النُقط وكمّها، كل ذلك كان بتنسيق وانسجام بديعين.

فليس من العجيب أن نجد أغلب الحروف العربية تُبرز بوضوح شكل حدوث صوتها من جهة ما. كما أنه لا عتب على العربي لو قلّت قوة الانسجام بين رسم وصوته، فنحن نؤمن بأنه اجتهاد بشري، وليس بعمل إله.

لكنه يبقى اجتهاد رجل تغذى من طبيعة تبنته، فصقلته وعلمته الحكمة، وعزز فيه هذا نيته الدائمة لخدمة القرآن الكريم، فاستطاع أن يبدع ويحقق الانسجام، فاقترب الرسم من الصوت وتوطدت العلاقة بينهما و عانقهما المعنى، حتى كادت العلاقة بين الثلاثة تبدو طبيعية.

وحين تشبع الحرف العربي بأعلى درجات الانسجام بين عناصره تحول إلى فن، فصار الرسم بما ينقل من صوت و معنى لعبة بيد الخطاط، يرسل به المعاني، بشكل قد تعجز عنه نصوص منطوقة، شعرا ونثرا.

الحرف العربي هو امتزاج بديع لمكوناته على التوالي: الصوت فالرسم فالمعنى.

الهوامش:

---

[1] إخوان الصفاء، رسائل إخوان الصفاء، تق: عليوش عبود، (الجزائر:موفم للنشر، 1992م.)، 296/1.

[2] تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص: 15.

[3] عفيف البهنسي، فن الخط العربي، ص: 101.

[4] يراجع: بسام بركة، علم الأصوات العام، (د ط، لبنان: مركز الإنماء القومي، دت.)، ص: 161.

[5] يراجع: محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، ص: 135.

[6] المرجع نفسه، ص: 10.

[7] يراجع: عفيف البهنسي، فن الخط العربي، ص : 135.

[8] يراجع: المرجع نفسه، ص : 138، 139.

[9] محمد بن سعيد شريفي، خطوط المصاحف عند المشارقة والمغاربة، ص : 20.

[10] حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص:83، 84.

[11] عفيف البهنسي، فن الخط العربي، ص:100.

[12] الخصائص، 65/1.

[13] يراجع: عفيف البهنسي، فن الخط العربي، ص، 22.

[14] يراجع: العقاد، اللغة الشاعرة، ص : 11.

[15] صلاح الدين المنجد، دراسات في تاريخ الخط العربي، ص:128.

[16] يراجع: حسن ظاظا، اللسان والإنسان، ص : 129.

[17] يحيى وهيب الجبوري، الخط والكتابة في الحضارة العربية، ص : 106.

[18] حاتم صالح الضامن، علم اللغة، ص : 156.

[19] محمد بن سعيد الشريفي، خطوط المصاحف، ص : 138.

[20] يراجع: عفيف البهنسي، فن الخط العربي، ص : 138.

[21] عبد الغفار حامد هلال، الصوتيات اللغوية، ص : 93.

[22] Steven R. Fisher ; History of Writing , P : 101.

[*] هذا المصطلح كان قد استخدمه عفيف البهنسي في كتابه، فن الخط العربي، حين تحدث عن الجماليين الذين يعتبرون الانسجام وحده كاف لتعريف الجميل، يراجع: ص : 139 من هذا المرجع.

[23] يراجع: تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص : 16.

[24] يراجع: الكتاب 436/4؛ سر صناعة الأعراب 76/1؛ النشر 166/1.؛ عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، ص:271،272

[25] غانم قدور الحمد ،الميسر في علم التجويد، ص:59،60.

[26] يراجع: العين، 58/1.

[27] سيبويه، الكتاب، 433/4.

[28] أسباب حدوث الحروف، 120.

[29] المصدر نفسه، ص : 77.

[30] يراجع: إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص : 76؛ وبسام بركة، علم الأصوات العام، ص : 123.

[31] يراجع: عبد القادر عبد الجليل، الصوتيات اللغوية، ص : 164.

[32] يراجع : يحيى عبابنة، دراسات في فقه اللغة، ص : 234، 235.

[33] الخليل، الحروف، ضمن ثلاثة كتب في الحروف، ص : 39.

[34] الرازي، كتاب الحروف، ضمن ثلاثة كتب في الحروف، ص: 142.

[35] المصدر نفسه، الصفحة نفسها. والصفر هو النحاس في البابلية والآشورية : (أسرار الحروف) ص : 129.

[36] يراجع: الخصائص، 2 / 160، 161.

[37] مقدمة لدرس لغة العرب، ص : 211.

[38] خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص: 149.

[39] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[40] المرجع نفسه صفحة :150.

[41] المرجع نفسه، ص : 151.

[42] المرجع نفسه، ص : 151.

[43] يراجع أسرار الحروف، ص:128، 129.

[44] يراجع: كمال بشر، علم الأصوات، ص : 253، 272؛ وإبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص : 48، 61.

[45] برجستراسر، التطور النحوي للغة العربية، (ط:2، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1994م.)، ص : 18، 19.

[46] يراجع: كمال بشر، علم الأصوات، ص : 272.

[47] لسان العرب، 2741/4 .

[48] العين، 58/1.

[49] الكتاب، 433/4.

[50] ابن جني، سر صناعة الإعراب، 60/1.

[51] أسباب حدوث الحروف، ص : 76.

[52] المصدر نفسه، ص : 119.

[53] يراجع: عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، ص : 166.

[54] يراع: ابن الجزري، النشر، 167/1.

[55] حفنى ناصف، حياة اللغة العربية، ص : 23.

[56] ابن جني، سر صناعة الإعراب، 230/1.

[57] يراجع: أحمد محمد قدور، مدخل إلى فقه اللغة العربية، ص : 110.

[58] يراجع ص: 168، 169 من البحث.

[59] النشر في القراءات العشر، 178/1.

[60] الخليل، الحروف، ضمن ثلاثة كتب في الحروف، ص : 40.

[61] الرازي، كتاب الحروف، ضمن ثلاثة كتب في الحروف ص:142.

[62] مقدمة لدرس لغة العرب، ص:211 .

[63] خصائص الحروف العربية، ص: 115.

[64] المرجع السابق، ص:155، 156.

[65] المرجع نفسه، ص: 159.

[66] يراجع: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[67] يراجع: أسرار الحروف، ص:128.

[68] يراجع: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[69] العين، 58/1.

[70] سيبويه، الكتاب، 433/4.

[71] ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، ص : 121.

[72] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[73] يراجع: إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص : 62، 63؛ ويراجع: عبد الغفار حامد هلال، الصوتيات اللغوية، ص : 250.

[74] عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، ص : 161.؛ ويراجع: كمال بشر، علم الأصوات، ص : 250؛ وبسام بركة، علم الأصوات العام، ص : 115.

[75] يراجع: تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص : 122.

[76] يحيى عبابنة، دراسات في فقه اللغة والفونولوجيا العربية، ص : 228.

[77] المرجع نفسه، الصفحة نفسها. ويراجع:عبد الفتاح عبادة، انتشار الخط العربي،ص: 10.

[78] الخليل، الحروف، ضمن ثلاثة كتب في الحروف، ص:40.

[79] الرازي، كتاب الحروف، ضمن ثلاثة كتب في الحروف، ص:142.

[80] يراجع: الخصائص، 158/2.

[81] مقدمة لدرس لغة العرب، ص:211.

[82] خصائص الحروف العربية، ص:120.

[83] المرجع نفسه،ص:121

[84] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[85] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[86] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[87] أسرار الحروف، ص:127.

[88] يراجع: العين، 58/1.

[89] سيبويه، الكتاب، 433/4.

[90] أسباب حدوث الحروف، ص : 122.

[91] يراجع: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[92] بسام بركة، علم الأصوات العام، ص : 160.

[93] يراجع: المرجع نفسه، ص : 122؛ وكمال بشر، علم الأصوات، ص : 299.

[94] عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، ص : 88، 89.

[95] يراجع: حفنى ناصف، حياة اللغة العربية، ص : 88، 89.

[96] الخليل، الحروف، ضمن ثلاثة كتب في الحروف، ص : 41.

[97] الرازي، كتاب الحروف، ضمن ثلاثة كتب في الحروف، ص : 142.

[98] مقدمة لدرس لغة العرب، ص : 211.

[99] خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص : 123.

[100] يراجع: المرجع نفسه، ص : 123، 125.

[101] يراجع المرجع نفسه.

[102] يراجع: أسرار الحروف، ص: 129، 130.